الباب الثاني عشر

في عجائب الدهر

من صروف الدهر:

يحكى أن عمرو بن مسعدة بن سعد بن صول أبا الفضل الصولي، وزير المأمون وأحد الكتاب البلغاء، وكان جواداً كريماً فاضلاً نبيلاً، وكان مصعداً من واسط إلى بغداد، وفي حر شديد وهو جالس في سفينة له، فناداه رجل: يا صاحب السفينة، بنعمة الله عليكم إلا نظرت إليّ.

قال: فكشف سجف السفينة ، فإذا بشيخ حاسر الرأس، فقال: قد ترى ما أنا عليه، ولست أجد من يحملني، فابتغ الأجر فيَّ، وتقدم إلى ملاحيه يطرحوني بين مجاديفهم إلى أن أصل بلداً يطرحوني فيه.

قال عمرو بن مسعدة: فرحمته لما رأيت من حاله، وقلت لهم: خذوه، فأخذوه فغشي عليه وكاد يموت لما لحقه من المشي والعياء في الشمس، فلما أفاق قلت له: يا شيخ ما حالك وما قصتك؟.

فقال قصتي قصة طويلة، فسكَّنته وطرحت عليه قميصاً ومنديلاً، وأمرت له بدراهم وبشيء من العطر فشكرني، فلما هدأ باله وسكنت نفسه وأطمأن قلبه قلت له: لابد أن تحدثني بحديث عن قصتك.

ما قيل في وفاة الإسكندر الأكبر:

ويحكى أنه لما مات الإسكندر، وقف بعض الحكماء عند تابوته، وكل واحد منهم قال بما حضره معبراً عن ذلك المشهد، فقال الأول: (سلك الإسكندر طريق من فني، وفي موته عبرة لمن بقي). وقال الثاني: (خلف الإسكندر ماله لغيره، وسيحكم فيه بغير حكمه)، وقال الثالث: (أصبح الإسكندر مشتغلاً بما يعاني ، وهو بالأعمال يوم الجزاء أشغل)، وقال الرابع : (كنت مثلي حديثاً، وأنا مثلك وشيكاً)، وقال الخامس: (إن هذا الشخص كان لكم واعظاً، ولم يعظكم قط بأفضل من مصرعه)، وقال السادس: (كان الإسكندر كحلم نائم انقضى، أو كظل غمام انجلى)، وقال السابع : (لئن كنت بالأمس لا يأمنك أحد، لقد أصبحت اليوم لا يخافك أحد)، وقال الثامن: (أجاهلاً كنت بالموت فنعذرك، أم عالماً به فنلومك؟) وقال التاسع : (كفى للعامة أسوة بموت الملوك، وكفى للملوك عظة بموت العامة)،

ويقال أن وفاة الإسكندر الكبير المقدوني كانت في سنة ٣٢٤ قبل الميلاد، وكان موته في مدينة بابل بالعراق والله أعلم.

جزاء الخيانة:

يروى أن رجلاً أمسى في بعض محال الجانب الغربي من مدينة السلام، ومعه دراهم كثيرة، فخاف على نفسه من الطائف، (الطائف هو الذي يطوف، والطائف هو أحد العسس الذي يحرس ليلاً)، أو من بلية تقع عليه، فأوى إلى رجل من أهل الحلة، وسأله أن يبيت عنده، فقبل الرجل صاحب الدار، وأدخله الدار.

فلما تيقّن صاحب الدار بأن الرجل الضيف عنده مال ذو شأن، حدّث صاحب الدار نفسه بقتله وأخذ ماله.

وكان لصاحب الدار ابن شاب فنومه بحذاء الرجل الضيف، في مكان واحد ولم يعلم ابنه ما في نفس أبيه، وما بيّته ضد الضيف، وخرج الأب من عندهما، وقد عرف مكان كل منهما، وأطفأ السراج.

فقدر الله أن الابن انتقل من موضعه إلى الموضع الذي نام فيه الضيف، وانتقل الضيف إلى الموضع الذي انتقل منه الابن، وكان ذلك صدفة ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وجاء الأب يطلب الضيف لينفذ جريمته، فصادف الابن في مكان الضيف، وهو لا يشك أنه الضيف، فخنقه فاضطرب الابن فمات.

وانتبه الضيف بسبب اضطراب الابن، وعرف ما أريد به فخرج خائفاً هارباً، وصاح في الطريق، ووقف الجيران على خبره، فخرجوا إليه وأغاثوه، وأخذ الرجل صاحب الدار، فقرر فأقر بقتل ولده، فحبس وأخذ المال من داره فرد إلى الضيف وسلم، وباء الأب بجريمة قتل ابنه.

قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾ [سورة فاطر: ٤٣].

وهكذا يتحقق قول الله تبارك وتعالى في الرجل الظالم إذ رجع ظلمه على نفسه، قال الله تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ﴾ [سورة الإسراء: ٧] وقال

الله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [سورة الحج: ٣٨].

وروى مبشر الرومي مولى أبي القاسم علي بن محمد التنوخي القاضي قال: لما خرج معز الدولة في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة هجرية، وانهزم ناصر الدولة من بين يديه أنفذني مولاي لأكون بحضرته، وحضرة أبي جعفر الضميري كاتبه، وأصل كتبه إليهما.

فسمعت حاشية الضميري يتحدثون: أنه جاء إليه ركابي من ركابيته، وقال له: أيها الأمير، إن قتلت لك ناصر الدولة أي شيء تعطيني؟.

قال له الأمير: أعطيك ألف دينار، قال: فأذن لي أن أمضي إليه، وأحتال في إغتياله وقتله، فأذن له الأمير في ذلك.

فمضى إلى أن دخل عسكره، وعرف موضع مبيته من خيمته، فرصد الغفلة حتى دخل ليلاً، وناصر الدولة نائم مطمئن، وكان بالقرب من مرقده شمعة مشتعلة، وفي الخيمة غلام نائم.

فعرف الركابي موضع رأس ناصر الدولة من المرقد، ثم أطفأ الشمعة تمهيداً لتنفيذ جريمته، واستل سكيناً طويلاً ماضياً كان في وسطه، وأقبل يمشي في الخيمة خائفاً وَجِلاً عن أن يعثر بالغلام، وينكشف أمره، ولا يحقق ما يريده من قتل ناصر الدولة.

فإلى أن يصل إلى ناصر الدولة، حصل أن انقلب ناصر الدولة من الجانب الذي كان نائما عليه إلى الجانب الآخر، وزحف في الفراش،وبينه وبين الموضع الذي كان فيه مسافة يسيرة.

وبلغ الركابي إلى الفراش،وهو لا يشك أن ناصر الدولة فيه وأن ذلك مكانه، فوجأ الموضع بالسكين بجميع قوته، ولم يخامره شك أنه قد أثبتها في قلب ناصر الدولة، وتركها في موضعها،وخرج من تحت أطناب الخيمة، خائفا يترقب، حتى لا يكتشف أمره من قبل حرس وجنود ناصر الدولة.

وسار مسرعاً في نفس الوقت إلى معسكر معز الدولة، فلما وصل إلى معز الدولة أخبره بأنه قتل ناصر الدولة، وخلا له الجو، وطالب الركابي بالمكافأة، فطلب منه معز الدولة أن يشرح له كيف صنع حتى وصل إلى قتل ناصر الدولة بالتفصيل، فشرحه.

فقال له معز الدولة: إصبر حتى يصل من كلَّفته بتقصّي الأخبار لأقف على صحة الخبر، فإنني أشك أن تكون قد قمت بما تدعيه.

وبعد يومين وردت الأخبار الصحيحة، بأن ناصر الدولة لازال حياً يرزق، وأن الذي حصل هو: (أن إنساناً أراد أن يغتاله، ولكن فشلت مؤامرة الاغتيال، وذكر السكين التي وجدت في فراش ناصر الدولة).

فطلب معز الدولة إحضار الركابي لمكافأته على تدبير جريمته وكذبه، فلما أحضر سلمه إلى أبي جعفر محمد بن أحمد الضميري الهلالي، وقال له معز الدولة: اكفني أمر هذا الركابي ، فإن تجاسر على الملوك، لا آمنه على نفسي، فأخذه الضميري فغرَّقه سراً، وقد ذكرت هذه الحادثة ضمن حوادث سنة٣٣٤هـ.

من يتَّقِ الله يجعل له مخرجاً:

يروى أن عبد الملك بن مروان كان جالساً، في قصر الخلافة بدمشق، إذ ورد إليه كتاب صاحب بريد الثغور الشامية، يخبره أن خيلاً من الروم تراءت للمسلمين، فنفروا إليها ثم عادوا ومعهم رجل كان قد أُسِرَ في أيام معاوية بن أبي سفيان،فذكرأن الروم لما تواقفوا مع المسلمين أخبروهم بأنهم لم يأتوا لحرب، وإنما جاؤوا بهذا المسلم ليسلموه إلى المسلمين، لأن عظيم الروم أمرهم بذلك.

فأمر عبد الملك بإحضار المسلم إليه، فلما دخل على عبد الملك قال له: من أنت؟. قال: أنا قباث بن رزين اللخمي، أسكن فسطاط مصر في الموضع المعروف بالحمراء، أسرت في زمن معاوية بن أبي سفيان وطاغية الروم إذ ذلك كان توما بن ملازوق.

فقال له عبد الملك: فكيف كان فعله بكم؟. قال: لم أجد أحداً أشد عداوة للإسلام وأهله منه، إلا أنه كان حليماً، فكان المسلمون في أيامه أحسن حالاً منهم في أيام غيره إلى أن أفضى الأمر إلى ابنه ليون، فقال في أول ما ملك إن الأسرى إذا طال أسرهم في بلد أنسوا به، ولو كان على غاية الرداءة وليس أنكأ لقلوبهم من نقلهم من بلد إلى بلد.

فأمر بإثني عشر قدحاً، فكتب على رأس كل قدح اسم بطريق من بطارقة البلدان التي ملكها، ويضرب بالقداح في كل سنة أربع مرات، فمن خرج اسمه

في القدح الأول حول إليه المسلمين، فيحبسهم عنده شهراً، ثم إلى الثاني ثم إلى الثالث، ثم تعاد القداح بعد ذلك.

فكنا لا نصير عند أحد البطارقة إلا قال لنا: احمدوا الله حيث لم يبتليكم ببطريق البرجان، فكنا نرتاع لذكره،ونحمد ربنا إذ لم يبتلنِا به فمكثنا على ذلك سنين عديدة.

ثم ضربت القداح ، فخرج الأول والثاني لبطريقين، وخرج الثالث لبطريق البرجان، فمر بنا في الشهرين غم كبير نترقب فيهما المكروه، فلما انقضى الشهران حملنا إليه ، ونحن أشد خوفاً، ورأينا على بابه من الجمع خلاف ما كنا نعاين، فتبين لنا من فظاظته وغلظته ما أيقنا معه بالموت.

ثم دعا بالحدادين، فأمر بتقييد المسلمين بأضعاف ما كان يقيدهم غيره، فلم يزل الحديد يعمل في رجل واحد بعد واحد، حتى وصل الحداد إليّ، فنظر إلى وجه البطريق فرأيته قد نظر إليّ نظراً بخلاف العين التي كان ينظر بها إلى غيري، ثم كلمني بلسان عربي فصيح، فسألني عن اسمي ونسبي ومسكني بمثل ما سألني عنه أمير المؤمنين فصدقته عما سألني عنه.

ثم قال لي: كيف حفظك لكتابكم؟ فأعلمته أني حافظ، فقال اقرأ آل عمران، فقرأت منها خمسين آية، فقال : إنك لقارىء فصيح، ثم سألني عن روايتي للشعر، فأخبرته بأني راوية للشعر.

فاستنشدني لجماعة من الشعراء، فقال: إنك لحسن الرواية، ثم قال لخليفته: إني قد أحببت هذا الرجل، فلا تحدده (أي لا تقيده).

ثم قال : وليس من الإنصاف أن أسوءه في أصحابه، ففك القيود عن جماعته، وأحسن مثواهم، ولا تقصر في قراهم.

ثم دعا صاحب مطبخه أي طباخه، فقال له : لست أطعم طعاماً ما دام هذا العربي عندي إلا معه، فاحذر أن تدخل مطبخي ما لا يحل للمسلمين أكله، وأن تجعل الخمر في شيء من طبيخك، ثم دعا بمائدته واستدعاني حتى قعدت إلى جانبه.

فقلت له : فدتك نفسي، وبأبي أنت، أحبّ أن تخبرني من أي العرب أنت؟. فضحك وقال: لست أعرف لمسألتك جواباً، لأني لست عربياً فأجيبك على سؤالك، فقلت له : مع هذه الفصاحة بالعربية.

فقال: إن كان العلم باللسان ينقل الإنسان من جنسه إلى من حفظ لسانه ، فأنت إذاً رومي، فإن فصاحتك بلسان الروم ليست بدون فصاحتي بلسان العرب فعلى قياس قولك، ينبغي أن تكون رومياً، وأكون أنا عربياً، فصدقت قوله، وأقمت عنده خمس عشرة ليلة، لم أكن منذ خلقت في نعمة أفضل منها وأكبر.

فلما كانت ليلة ست عشرة فكرت أن الشهر قد مضى نصفه، وأن الليالي تقربني من الانتقال إلى غيره، فبتّ مغموماً.

وجاءني رسوله في اليوم السادس عشر يدعوني إلى طعامه، فلما حضر الطعام بين أيدينا، رأى أكلي مقصراً عما كان يعهده مني، فضحك ثم قال لي: أحسبك يا عربي لما مضى نصف الشهر فكرت في أن الأيام تقربك من الانتقال عني إلى غيري ممن لا يعاملك بمثل معاملتي، ولا يكون عيشك معه مثل عيشك معي فسهرت واعتراك لذلك غم غيّر طعامك ، فأعلمته أنه قد صدق.

فقال: ما أنا إن لم أحسن الاختيار لصديقي بحر، وقد أمنك الله مما حذرت، ولم ألبث في اليوم الذي وصلت إلي فيه حتى سألت الملك فصيرك عندي ما كنت في أرض الروم، فلست تنقل عن يدي، ولا تخرج منها إلا إلى بلدك، وأرجو أن يسبب الله ذلك على يدي، فلما سمعت ذلك منه طابت نفسي ولم أزل مقيماً عنده إلى أن انقضى الشهر.

فلما انقضى الشهر ، ضرب بالقداح فخرج الأول والثاني والثالث لبطارقة غير الذي نحن عنده، فحول أصحابي إلى من خرجت القرعة إليه وبقيت وحدي.

وتغديت في ذلك اليوم مع البطريق، وكان من عادتي أن أنصرف من عنده بعد الغداء إلى إخواني من المسلمين، فنتحدث ونأنس، ونقرأ القرآن الكريم ونجمع الصلوات أي نصلي جماعة ونتذاكر الفرائض، ويستمع بعضنا من بعض ما حفظ من العلم وغيره ، فانصرفت بعد غدائي ذلك اليوم إلى الموضع الذي كنت فيه ألتقي بإخواني المسلمين، وأحزنني إذ لم أجد إلا الكفرة بعد نقل المسلمين إلى بطريق آخر، فضاق صدري ضيقاً تمنيت معه أني كنت مع أصحابي المسلمين، فبت بليلة ليلاء صعبة طال فيها سهري، وتذكرت قول الشاعر الجاهلي:

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

فـقـلـت لـه لما تمطّى بصـلـبه وأردف أعـجـازاً ونـاء بكلكـل
ألا أيها الـلـيـل الطـويـل ألا انجلي بصبح ومـا الإصباح منك بأمثل
فيا لك من لـيـل كـأن نجـومه بكل مغار الفتل شُـدّت بيذبـل

قال الأسير المسلم المؤمن بالله: فانصرفت ذلك اليوم، بعد غدائي مع البطريق -البطريق هو: اسم القائد من قادة الروم ، يتولى قيادة عشرة آلاف جندي-

قال الأسير المؤمن: عدت إلى الموضع الذي كنت أصير إليه بعد الغداء، وفيه المسلمون، فلم أر فيه أحداً إلا الكفرة، فضاق صدري ضيقاً تمنيت معه أني كنت مع أصحابي، فبتّ بليلة ليلاء صعبة لم أطعم فيها الغمض، أي لم تغمض عيني لنوم مما نالني من الوحشة، لرحيل أصحابي وتركي وحيداً، وأصبحت أكسف خلق الله بالاً وأسوأهم حالاً.

وجاءني رسول البطريق يدعوني للغداء، فرافقته فتبين الغم في أسارير وجهي، ومددت يدي إلى الطعام فرأى البطريق مدّ يدي إليه خلاف مدِّي الذي كان يعرف، فضحك ثم قال : أحسبك اغتممت لفراق أصحابك؟.

فأعلمته بأنه صدق، وسألته : هل عنده حيلة في ردهم إلى يده؟ فقال: إن الملك لم ير أن ينقل أصحابك من يدي إلى يد غيري إلا ليغمهم بما يفعل، ومن المحال أن يدع تدبيره في الإضرار بهم ، لميلي إليك ومحبتي لك، وليس عندي في هذا الباب حيلة ، فسألته أن يسأل الملك إخراجي عن يده، وضمي إلى أصحابي ، أكون معهم حيث كانوا.

فقال: ولا في هذا أيضا سبيل ، ولا حيلة، لأني لا أستجيز أن أنقلك من سعة إلى ضيق ، ومن كرامة إلى هوان، ومن نعمة إلى شقاء، فلما قال ذلك تبين فيّ الانكسار وغلبة الغمّ، فقال لي: لقد بلغ بك الغمّ إلى النهاية؟.

فأخبرته: أنه قد بلغ بي الغمّ، أن اخترت الموت على الحياة لعلمي أنه لا رحمة لي بغيره، فقال لي: إن كنت صادقاً، فقد دنا فرجك، فسألته عمّا دلّه على ذلك، فقال لي: إني وقعت في نكبات أشدّ هولاً مما أنت فيه، وكان عاقبتها الفرج.

قصة أحد قادة الروم: (بطريق)

وأعلمني أن بطرقة بلده لم تزل في آبائه يتوارثونها، وأن عددهم كان كثيراً، ولم يبق غير أبيه وعمه، وكانت البطرقة إلى عمه دون أبيه، فأبطأ على أبيه وعمّه الولد، فبذلا للمتطببين أموالاً كثيرة لعلاجهما بما يصلح الرجال والنساء، فلم يفلح العلاج للعمّ فيئس من ذلك واستفاد أبي من العلاج فحملت أمي بي.

فلما علم العمّ بذلك جمع عدة من الحبالى من ألسنة متعددة مختلفة منها العربي والرومي والإفرنجي، والصقلابي والخزري وغير ذلك فوضعهن في داره، فلما وضعتني أمي أمر عمي البطريق تلك النساء بإرضاعي وأوصى بأن لا تكلمني كل مرضعة إلا بلغتها ولسانها، فلم تتمَّ لي أربع سنوات حتى تكلّمت بكل اللغات التي لأمهاتي من الرضاعة، ثم طلب لتربيتي وتأديبي من الرجال من أجناس النساء، فكان كل واحد لا يكلمني إلا بلغته ولسانه، ويعلمني بها القراءة والكتابة، فلم تمر عليّ تسع سنوات حتى عرفت ذلك كله.

ثم أمر عمي أن يضم إليّ جماعة من الفرسان يعلمونني الثقافة والفراسة، واستعمال السلاح ، وجميع ما يتعلّمه الفرسان، ومنع عليّ سكون المنازل لتبقى حياتي خارجها لاكتساب المهارة، والاعتماد على صعوبة الحياة ومنعني من أكل اللحم إلا ما أصيده بنفسي، أو بواسطة ما علم من الطير أو الكلاب، فمرت عليّ عدة سنوات وأنا على تلك الحال، ثم مات عمي وولي البطرقة أبي.

ثم أمر أبي بالقدوم عليه، فلما رآني ورأى فيّ من الأدب والشمائل والفهم اشتد عجبه بي فسمح لي بما لم تكن الملوك تسمح به لأولادها، وأعدّ لي المضارب (الخيام) والأماكن، والفرش الفاخرة والألبسة الفاخرة، وضم لي جماعة من الفرسان الشجعان، ووسع على الجميع كل ما يحتاجونه من المال وغيره، وأمرني بالابتعاد عن منازل أبي.

قال البطريق: فلما تمت لي خمس عشرة سنة، ركبت يوماً لارتياد مكان أكون فيه، فبصرت بغدير ماء طوله ألف ذراع وعرضه يزيد على خمسمائة ذراع، فأمرت بنصب الخيام بقربه، وتوجهت إلى الصيد فرزقت في ذلك اليوم ما لم أطمع في مثله كثرة، ونزلت في بعض الخيام، فأمرت الطباخين فطبخوا لي ما اشتهيت من الطعام، ثم نصبت المائدة بين يدي.

فإني لأنظر إلى الطعام يغرف إذ سمعت ضجة عظيمة، فما فهمت خبرها حتى رأيت رؤوس أصحابي تتساقط عن أبدانهم ، فتنحيت عن مكاني الذي كنت فيه، وخلعت أثوابي التي كانت علي، ولبست ثياب بعض عبيدي، ثم ضربت ببصري يمنة ويسرة، فلم أر حولي إلا مقتولاً، وإذا فاعل ذلك بأصحابي منسر من مناسر البرجان: المنسر مجموعة من الرجال ما بين الأربعين إلى السبعين رجلاً.

ثم أسرت كما يؤسر العبيد، واحتمل جميع ما كان معنا من خيام وغيره، وساروا بي إلى ملك البرجان، فلما رآني، ولم يكن له ولد ذكر أمر بالتوسعة عليّ وأن أكون واقفا عند رأسه وسماني به.

وكانت للملك ابنة فائقة الجمال، وكان يحبها حبًّا جمًّا، وكان قد علمها الفروسية، ومساورة الفرسان(أي مسابقتهم ومساهمتهم) أي المقارعة في السباق، ومراكضهم.

فقال لبطارقته ـ وأنا حاضر: من منكم يتوجه إلى ملك الروم فيختار لي كاتباً من بلده فيجيئني به ليعلم ابنتي الكتابة؟ فقلت له: إن رسوله الذي يرسله لا يأتيك بأكتب مني وأنا بارع في الكتابة وبأي لغة شئت كتبت لك.

فأمرني أن أكتب بين يديه، فكتبت فاستحسن خطي وقرنه بكتب كانت ترد عليه من والدي، فرأى خطي أجود منها، فدفع إليّ ابنته، وأمرني أن أعلمها الكتابة، فتوليت تعليمها الكتابة حتى بلغت ثلاث عشرة سنة، وفي يوم ممن الأيام جاءت مسرعة إليّ باكية، فقلت لها: ما يبكيك يا سيدتي؟.

فقالت: دعني أبكي إذ يحق لي البكاء، فسألتها عن سبب بكائها، فقالت: كنت جالسة بين يدي أبي وأمي في الليلة الماضية، فغلبتني عيني فنمت فسمعت أبي يقول لأمي أرى ابنتك قد كبرت، وأرى هذا الرومي قد غلظ كلامه، وليس من الحكمة أن يجتمعا بعد هذا الوقت، فإذا جلست غداً معه، فابعثي إليهما من يفرق بينهما، حتى لا يراها ولا تراه.

وكان من عادة ملك البرجان وسنَّته، أن يخطب الرجل لابنته زوجاً حتى يزوجها، ولا يخطب لها إلا من تختاره البنت نفسها.

قال البطريق: فقلت لابنة الملك: إذا سألك أبوك من تختارين أن أخطب لك من الرجال؟ فقولي : لست أريد إلا هذا الرومي؟.

فقالت بغضب على غضب: كيف يجوز أن يوافق أبي على تزويجي عبداً، فقلت لها: ما أنا بعبد، وما جعلني عبداً كما تظنين، أنا ابن ملك، وأبي ملك الروم.

قال البطريق، وأهل البرجان يسمون البطريق الرومي الذي يتولى حد برجان: ملك الروم، فسألتني عما أخبرتها به، أهو حق أم ادعاء لا أساس له من الصحة، فأعلمتها أنه الحق لا مرية فيه.

فما انقضى كلامنا، حتى جاء رسول الملك، ففرّق بيننا، ولم يمض بعد ذلك إلا ثلاثة أيام حتى دعاني الملك، فدخلت عليه، فرأيت أمارات الشر مستحكمة في وجهه و الشرر يتطاير منه.

فقال لي: يا شقيّ ما حملك على الكذب في نسبك، أغرّتك معاملتي الطيبة لك؟ وأنا أحكم على من انتسب إلى غير أبيه بالقتل فقلت له: ما ينبغي أن ينتسب أي عاقل إلى غير أبيه؟ وما انتسبت إلى غير أبي.

فقال الملك: لقد بلغني انتسابك إلى أنك ابن ملك الروم، فما حملك على ذلك؟ فأعلمته أن ما قلته حق وإني ابن ملك الروم، ودعوته إلى الكشف عن ذلك بما يشاء، فقال الملك: لست أحتاج إلى كشف أمرك برسول أرسله ليعرف خبرك، ولكن لي أشياء امتحنك بها، فأعرف صدقك من كذبك، فدعوته إلى كشفها بما شاء وإصدار حكمه بعد ذلك على ما يرى من برهان ذلك.

فدعا الملك بفرس ولبد وسرج ولجام، فأمرني بأخذ الفرس، فأخذت الفرس من يد السائس، ثم أمرني بتناول السرج فأخذته، ثم أمرني بشد الحزام، والثفر (السير)، بوضع إستئخار السرج، وأمرني بأخذ اللجام وإلجام الفرس ففعلت ذلك كله.

ثم أمرني بركوب الفرس، فركبت وأمرني بالسير فسرت وأمرني بالإقبال والإدبار، ففعلت ثم أمرني بالنزول فنزلت، وهو في كل ذلك يلاحظ.

فلما رأى ما رأى ، قال عند ذلك: أشهد أنه ابن ملك الروم، لأنه أخذ الفرس أخذ الملك وعمل سائر الأشياء مثلما تعمله الملوك، فأشهد أني قد زوجته ابنتي، فشهد القوم عليّ بذلك.

فأمر الملك بتجهيزها وتسليمها إليَّ، فجمعنا الله على خير، وعشنا في سعادة وهناء.

وقد كان لوالدي البطريق صديق له أدب وحكمة، وبراعة في التصوير فصور لهما صورتي في خشبة، وزوَّقها في غرفة من غرف بيت والدي، وقال لهما: إذا ذكرتما ابنكما واشتد غمكما فادخلا الغرفة، فانظرا إلى هذه الصورة، فإنكما ستبكيان بكاء كثيرا يعقبكما سلوة.

ثم إن والدي لم ييأس من حياتي، فأرسل بعض خدمه يبحثون عني، حتى وجدوني وزوجتي فأخذوني إلى أبي، فأخبرته أن والد البنت يحب أن يعلم أين ابنته، وابن من أنا ففعل أبي ذلك.

ثم وجه رسله إلى أبي البنت وهو صاحب البرجان، فخرج في رجال مملكته وتعرف على أبي، فأقيم عرس جديد، وحدثت علاقة طيبة بين الروم والبرجان جرت فيها أيمان مؤكدة أن لا يعتدي أحدهما على صاحبه ثلاثين سنة، ورجع ملك البرجان إلى بلاده وصرنا نحن إلى منازلنا، وساد الوئام بين الفريقين.

قال البطريق : ومات أبي فورثت البطرقة (أي القيادة والملك)، عنه ورزقت من بنت ملك البرجان الولد، وأنت يا عربي، فإن كان الغمّ قد بلغ منك إلى ما ذكرت، فقد جاءك الفرج.

عربي أمام قيصر الروم:

فما انقضى كلام البطريق يا أمير المؤمنين، حتى دخل عليه رسول ملك الروم يدعوه، فمضى إليه، ثم عاد إليَّ مسروراً، فقال: يا عربي أبشر فقد جاءك الفرج، كنت عند الملك، وقد جرى ذكر العرب، ورمتهم البطارقة عن قوس واحدة فذكروا أنهم لا عقول لهم، ولا آداب، وأن قهرهم الروم بالغلبة والاتفاق لا بحسن التدبير، فأعلمت الملك أن الأمر بخلاف ما قالوا، فإن للعرب آداباً وأذهاناً وتدبيراً جيداً.

فقال لي الملك : أنت لمحبتك لضيفك العربي تفرط في إعطاء العرب ما ليس لها، وتصفها بما ليس فيها، فقلت للملك : إن رأى الملك أن يأذن في إحضار هذا العربي ليجمع بينه وبين هؤلاء المتكلمين، ليعرف فضيلته، فأمرني بإحضارك إليه. فقلت له: بئس ما صنعت بي، لأني أخاف إن غلبني أصحابه أن يستخف بي وإن غلبتهم أن يضطغن علي.

فقال : هذه صفة العامة، والملوك على خلافها، وأنا أخبرك أنك إن غلبتهم جللت في عين الملك، وكنت عنده بمكان يقضي لك فيه حاجة، وإن غلبوك سره غلبة أهل دينه لك، فأوجب لك أيضاً بذلك ذماماً، وإن أقل ما يرى أن يقضي لك حاجة ،فإن غلبت أو غلبت فسله إخراجك من بلده، وردك إلى بلادك، فإنه سوف يفعل.

قال الأسير: فلما دخلت على الملك استدناني،وقربني وأكرمني، وقال لي : ناظر هؤلاء البطارقة،فأعلمته: أن لا أرضى لنفسي بمناظرتهم،إني لا أناظر إلا البطريق الأكبر، فأمر الملك بإحضاره.

مناظرة البطريق الأكبر:

فلما دخل البطريق الأكبر: سلّمت عليه، وقلت له: مرحبا بك أيها الشيخ الكبير القدر، ثم قلت له : يا شيخ كيف أنت؟ قال: في عافية، قلت: فكيف أحوالك كلها؟ قال : كما تحب: فقلت له : فكيف ابنك؟. فتضاحك البطارقة من ذلك وقالوا: زعم البطريق: (يعنون صديقي)، إن هذا أديب، وأن له عقلاً، وهو لا يعلم بجهله أن الله قد صان هذا البطريق عن أن يكون له ابن، فقلت : كأنكم ترفعونه عن أن يكون له ابن؟ قالوا: أي والله، إنا لنرفعه إذا كان الله رفعه عن ذلك.

فقلت: يا عجباً أيجل عبد من عبيد الله أن يكون له ابن، ولا يجل الله تعالى وهو خالق الخلائق كلها عن أن يكون له ابن؟!

فلما سمع البطريق الكبير كلامي فيه، نخر نخرة أفزعتني، ثم قال للملك: أيها الملك أخرج هذا الساعة عن بلدك لا يفسد عليك أهله.

فدعا الملك بالفرسان، فضمني إليهم، وأحضر لي دوابّ البريد، وأمر بحملي وتسليمي إلى من يلقانا في أرض الإسلام من المسلمين، فسلموني إلى من تسلّمني من أهل الثغر.

ذلك أيها الأمير هو ما عايشته في بلاد الروم، منذ أسرت إلى أن رجعت إليكم، لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب، والمؤمن عليه أن يصبر إذا ابتلي وأن يشكر إذا عوفي.

قصة رجل صيرفي:

قال الرجل الصيرفي: أنا رجل كانت لله عز وجل عليّ نعمة جليلة، وكنت صيرفيًّا فابتعت جارية بخمسمائة دينار، فعشقتها عشقاً عظيماً، وكنت لا أقدر على فراقها ساعة واحدة، فإذا خرجت إلى الدكان أصبت بصداع وأخذني شيء كالجنون والهيمان -(الهيمان) هو المصاب بداء الهيام-، والهيمان هو أيضا العطشان، حتى أعود فأجلس معها يومي كله.

فاستمر ذلك بي فتعطلت عن العمل، وعطل دكاني،وتعطل كسبي، وأقبلت على الإنفاق من رأس مالي، حتى لم يبق منه قليل ولا كثير، وأنا مع ذلك لا أطيق فراقها، فحملت (الجارية)، وأقبلت أنقض داري وأبيع نقضها حتى فرغت من ذلك، فلم تبق لي حيلة.

فضربها الطلق للولادة، فقالت: يا هذا ها أنا أموت فاحتمل فيما تبتاع به عسلاً ودقيقاً، وزيتاً ولحماً وإلا مت.

فبكيت وحزنت وخرجت أهيم على وجهي، وجئت لأغرق نفسي في نهر دجلة فذكرت حلاوة النفس وخوف العقاب في الآخرة، فامتنعت عن ذلك.

ثم خرجت هائماً على وجهي إلى النهروان، ومازلت أمشي من قرية إلى قرية حتى بلغت خراسان، فصادفت فيها من يعرفني، وتصرفت في ضياعه : من معاني الضيعة (الأرض المغلة)، وعليها مساكن للعمال والمزارعين، والضيعة في بعض البلدان العربية هي القرية.

فتصرفت في ضياعه، ورزقني الله عز وجل مالاً عظيماً، فأثريت واتسعت حالي ومكثت سنيناً لا أعرف خبر منزلي، فلم أشك أن الجارية قد ماتت، وتراخت السنون حتى جمعت عشرين ألف دينار، فقلت: قد صارت لي نعمة فلو رجعت إلى وطني وأهلي.

فاشتريت بذلك المال كله متاعاً من خراسان، وأقبلت راجعا أريد العراق من طريق فارس والأهواز.

فلما وصلت بين فارس والأهواز خرج على القافلة لصوص من قطّاع الطرق، فأخذوا جميع ما فيها، ونجوت بملابسي التي عليّ، وعدت فقيراً ودخلت

الأهواز فبقيت بها متحيّراً، لا أدري ماذا أعمل، حتى كشفت خبري لبعض أهلها ممن أعرفه، فأعطاني ما تحملت به إلى واسط ، فنفذ ما عندي من نفقة، فمشيت إلى هذا الموضع وقد كدت أتلف ، فاستعنت بك وأنا كما ترى حالي، وقد مر علي ثمان وعشرون سنة منذ فارقت بغداد.

قال عمرو بن مسعدة: فعجبت من ذلك، وقلت له: اذهب، فاعرف خبر أهلك وصر إليّ، فإني أتقدم بتصريفك فيما يصلح لمثلك، فشكرني ودعا لي ودخلنا بغداد.

ومضيت على ذلك فترة ليست بالقصيرة، حتى نسيت الرجل وقصته ، فبينما أنا يوما وقد ركبت أريد دار الأمير المأمون، وإذا بالشيخ على بابي راكباً بغلاً فارهاً، بمركب محلى ثقيل وغلام أسود بين يديه، وثياب حسنة نظيفة.

فلما رأيته رحبت به ، وقلت له: ما الخبر وما الذي حصل؟، فقال: خبر طويل وأمر عجيب حقاً، وها أنا جئت لأخبرك بأنني سآتيك غداً ـ إن شاء الله ـ وحدثك بالخبر.

الصيرفي يتعرف على ولده:

فلما كان الغد جاءني، فقلت له: عرفني خبرك فقد سررت بسلامتك، وبظاهر حالك، فقال: إني لما صعدت من مركبك، قصدت داري، فوجدت حائطها الذي يلي الطريق كما خلفته، غير أن باب الدار كان مجلواً نظيفاً، وعليه دكاكين وبواب وبغال مع مراقبيها.

فقلت: أنا لله وإنا إليه راجعون، ماتت جاريتي، وملك الدار بعض الجيران فباعها من رجل من أهل أمير المؤمنين، ثم تقدمت إلى بقال، كنت أعرفه في المحلة، فوجدت في دكانه غلاماً حدثاً. فقلت له : من تكون من فلان البقال؟ فقال أنا ابنه، فقلت: وأين أبوك؟ قال: مات؟ فقلت: ومتى مات؟، قال: مات منذ عشرين سنة، قلت: لمن هذه الدار -أقصد داري-؟ قال: لابن داية أمير المؤمنين: (الداية القابلة والجمع دايات)، وهو الآن صاحب بيت ماله.

قلت: بمن يعرف؟، قال : يعرف بفلان الصيرفي، فذكر اسمي، قلت فهذه الدار من باعها إليه؟ قال: هذه دار أبيه الصيرفي، قلت: وأين أبوه؟ قال: مات أبوه، قلت: أتعرف من حديثهم شيئاً؟

قال: نعم. حدثني أبي أن والد هذا الرجل كان صيرفيًّا جليلاً، فافتقر وأن أم هذا الرجل ضربها الطلق، فخرج أبوه يطلب لها شيئاً، ففقد وهلك.

وقال أبي: جاءني رسول أم هذا يطلب شيئاً، وهي تستغيث بي فقمت لها بحوائج الولادة ودفعت لها عشرة دراهم، فما أنفقتها، حتى قيل قد ولد لأمير المؤمنين الرشيد مولود ذكراً وقد عرض عليه جميع المرضعات فلم يقبل ثديهن، وقد طلب له الحرائر فجاؤوه بغير واحدة فلم يقبل، وهم في طلب مرضع .

حسن الصدف بتقدير الله:

فأرشدت الذي طلب مر ضعاً إلى أم هذا الولد، فحملت إلى دار أمير المؤمنين، فحين وضع ثدي أم هذا الولد في فم الصبي قبله فأرضعته، وكان الصبي المأمون، وصارت عندهم في حال حسنة جليلة ، ونالت منهم خيراً كثيراً.

ثم خرج المأمون إلى خراسان، وخرجت المرأة وابنها مع المأمون، ولم نعرف شيئاً عن أخبارهم إلا منذ وقت قريب ، لما عاد المأمون وعادت حاشيته ، رأينا هذا قد صار رجلاً، ولم أكن قد رأيته قبل قط ، وكان أبي قد مات.

فقالوا: هذا ابن فلان الصيرفي وابن داية: مرضعة أمير المؤمنين المأمون، فبنى هذه الدار، ثم قلت: له هل عندك علم أن أمه حية أم ميتة؟. قال: هي حية تمضي إلى دار الخليفة المأمون أياماً، وتكون عند ابنها أياماً هنا.

ابن الصَّيرفي يتصدر:

فحمدت الله تعالى على هذه الحال، وجئت الدار مع الناس، فرأيت في صدر المجلس رجلاً شابًّا بين يديه كتاب ومحاسبون، ورجالاً بأيديهم الأموال، يقبض منهم وآخرين يقبضون منه، فلما انتهى الجميع مما هم فيه انصرفوا وبقيت منفرداً مع الفتى الشاب، فلما رآني أقبل إليَّ وقال: يا شيخ هل من حاجة تريدها؟.

سر المفاجأة:

فقلت: نعم ولكنه أمر لا يجوز أن يسمعه غيرك ، فأومأ إلى غلمان كانوا حوله قياماً فانصرفوا، وقال: قل أعزك الله، قلت: أنا أبوك، فلما سمع مقالتي تغيّر وجهه

ثم وثب مسرعاً وتركني مكاني، فلم أشعر إلا بخادم جاءني فقال : قم يا سيدي، فقمت أسير معه حتى بلغت ستارة منصوبة في دار لطيفة، وكرسي بين يديها، والفتى جالس على كرسي آخر فقال: اجلس أيها الشيخ. فقلت للفتى: أظنك تريد أن تختبر صدق ما قلت لك من جهة فلانة، وذكرت اسم الجارية أمه أليس كذلك؟ قال: فإذا بالستارة قد كشفت والجارية قد خرجت إليَّ فوقعت عليّ تقبلني وتبكي وتقول: مولاي والله أنت فأخذت دموعي تسيل على خدي بلا انقطاع، إنها لحظة اللقاء والمفاجأة.

قال: فلم يتحمل الفتى هو الآخر، تلك اللحظة المفاجئة فتحير وبهت، فقلت للجارية: ويحك ما خبرك؟ وما الذي حصل خلال تلك المدة، فقالت: دع ذلك ففي مشاهدتك سلوان عما مضى ومما تفضل الله به علينا من مشاهدتك، كفاية إلى أن أخبرك ، فقل ما كان من خبرك.

الصَّيرفي يحكي قصته:

فقصصت عليها خبري ، من يوم خروجي من عندها ، وهي في حالة الطلق إلى يوم اللقاء، وقصّت هي الأخرى قصتها مثل ما قال ابن البقال جارنا وأعجب وأشرح للصدر،وكل ذلك والفتى يسمع ويتابع باهتمام، فلما استوفى الحديث خرج وتركني في مكاني والجارية.

قال: فما طال بنا الجلوس حتى جاء خادم فقال: يا مولاي يسألك ولدك أن تخرج إليه فهو في انتظارك.

قال: فخرجت إليه ، فلما رآني من بعيد قام قائماً على قدميه وقال : معذرة إلى الله وإليك يا أبتِ، من تقصيري في حقك، فإنه فاجأني من أمرك ما لم أظن أنه يكون، والآن فهذه النعمة لك ،وأنا ولدك وأمير المؤمنين المأمون مجتهد بي منذ دهر أن أدع هؤلاء الكتبة، وأتوفر على خدمته في الدار، فلا أفعل طلباً للمسك بضيعتي، والآن فأنا أسأله أن يرد إليك عملي، وأخدمه أنا في غيرها فقم يا أبتي عاجلاً وأصلح أمرك، فأخذت الحمام، ونظفت نفسي، وجاءني الخدم بخلعة وروائح عطرة فلبستها وزال ما بي من العياء والتعب، ودبت الحياة فيَّ، وخرجت إلى حجرة والدته فجلست فيها ، ثم ما لبثت إلا قليلا.

الولد يقدم والده لأمير المؤمنين:

ثم أدخلني على أمير المؤمنين، فطلب مني أن أحدثه بحديثي، فلما حدثته خلع عليّ أفضل الخلع وأحسنها ، ورد عليّ العمل الذي كان إلى ولدي،وأجرى علي من الرزق في كل شهر كذا وكذا، وقلّد ابني أعمالاً هي من أجل عمله وأضعف له أرزاقه، وأمره بلزوم حضرته في أشياء استعمله فيها من خاص أمره.

فجئت لأشكرك أيها الوزير، على ما عاملتني به من الجميل، وأعرفك بتجدّد نعمة الله عليّ إذ أطال الله في عمري، وأرى جاريتي وولدي فيما هما فيه من النعمة والفضل والعزة والكرامة، فدبَّت فيّ الحياة والأمل من جديد.

فقال عمرو بن مسعدة: فلما عرفني اسم الفتى واسم أمه علمت أنه ابن داية أمير المؤمنين المأمون.

إن الزمان مليء بالعبر والعظات، وحوادث الزمن تعلم الرجال الصبر والتوكل على الله، وعلى العاقل أن يأخذ من تلك الحوادث الصبر لتحمل المشاق والتذرع بسلاح الصبر والتمسك بحبل الله المتين، والله يصرّف الأمور على وفق إرادته وحكمته ، وإن خفيت على المخلوقين، لأنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلا ،والله وَسِعَ كل شيء رحمة وعلماً.

خذ العبرة من حوادث الزمان:

روى القاضي الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي، قال: حدثني رجل أن رجلاً خرج بغزل فباعه بدرهم ليشتري به دقيقاً لأهله، فمرعلى رجلين كل منهما آخذ برأس صاحبه يجرّه إليه ، فقال الرجل: ما هذا؟.

فقيل له: يقتتلان في درهم، فأعطاهما ذلك الدرهم وليس له شيء غيره فرجع إلى امرأته فأخبرها بما جرى له ، فجمعت له أشياء من أمتعة البيت ليبيعها فذهب بها إلى السوق فكسدت عليه، فمرّ على رجل وهو عائد إلى بيته خائباً رأى معه سمكة قد نتنت فقال له: إن معك شيئاً قد كسد، ومعي شيء قد كسد أيضاً، فهل لك أن تبيعني كاسدك بكاسدي قال: نعم. خذ هذا وأعطني ذلك فرجع كل واحد منهما إلى داره راضياً بذلك.

فلمَّا وصل مشتري السمكة إلى البيت قال لزوجته: قومي فأصلحي لنا أمر هذه السمكة، فقد هلكنا من الجوع.

فقامت المرأة لتصلح السمكة، وتُعدّها للأكل بعد تنظيفها، فشقّت جوف السمكة ففوجئت بوجود لؤلؤة في جوفها، فقالت المرأة لزوجها: يا سيدي قد خرج من جوف السمكة شيء أصغر من بيض الدجاج، وهو يقارب بيض الحمام لا أدري ما هو؟.

قال الرجل: أرينيها، فنظر إلى شيء ما رأى في عمره مثله، فطار عقله وحار لبه، فقال لزوجته: أظن أن هذه لؤلؤة، فقالت: أو تعرف اللؤلؤة؟ قال: لا ولكني أعرف من يعرف ذلك، ثم أخذها،وانطلق بها إلى صديق له يعرفه حق المعرفة وهو يبيع الجوهر،والذهب والفضة، فلما وصل إليه سلم عليه وجلس بجانبه يتحدث معه، ثم أخرج ما عنده فعرضه على صاحبه وصديقه، فقال له: أنظر إلى هذا وأخبرني ما هو، وعن ثمنه؟.

فأخذ الجوهري ذلك الشيء ، فقال : هذه لؤلؤة وأنا مستعد لأشتريها منك بأربعين ألف درهم ، فإن شئت استلمت المبلغ الآن، وإن طلبت الزيادة فاذهب بها إلى فلان الجوهري ، فإنه سيعطيك عنها أكثر من أربعين ألف درهم.

فذهب الرجل بلؤلؤته إلى من دلّه عليه صديقه الجوهري الأول ، فلما وصل إليه سلم عليه وعرض له ما عنده، فنظر إليها واستحسنها وقال : ابتاعها منك بثمانين ألف درهم، وإن شئت الزيادة فاذهب بها إلى الجوهري فلان، فهو خير من يعرف قيمة هذه الأشياء.

فذهب بها إلى الجوهري الثالث، فلما رآها اشتراها منه بعشرين ومائة ألف درهم، فوزن له المال، فحمل الرجل في ذلك اليوم اثنتي عشرة بدرة، في كل بدرة عشرة آلاف درهم، فذهب بها إلى منزله، وعند وصوله إلى منزله وجد فقيراً واقفا بالباب يسأل.

فقال الرجل: هذه قصتي التي كنت فيها ، وحالتي التي كنت عليها، أدخل أيها السائل الكريم، فدخل الفقير فقال له الرجل: خذ نصف هذا المال، فأخذ الرجل الفقير ست بدر فحملها ثم انصرف غير بعيد، ثم رجع إليه.

ثم كشف له عن هويته، وقال: ما أنا بمسكين ولا فقير، وإنما أرسلني إليك الله عز وجل الذي أعطاك وعوّضك عن الدرهم عشرين قيراطا ، فهذا الذي أعطاك قيراطاً منه وادّخر لك تسعة عشر قيراطاً.

أمانة صادفت أهلاً :

فعن الحسن بن محمد الأنباري الكاتب قال: كان لي أيام مقامي بأرجان جار تاجر أمين ، يعرف بجعفر بن محمد وكنت آنس به فحدّثني يوماً فقال: كنت أحج كل عام، وكنت أنزل على رجل فقير مستور،من الفقراء الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، تعرفهم بسيماهم، وكنت ألطفه واتفقده.

وفي سنة من السنين حالت بيني وبين الذهاب إلى الحج بعض الشواغل، ثم عاودت الحج في العام القادم، فذهبت إليه كعادتي، فوجدته قد أثرى وحسنت حالته فسررت لذلك، وسألته عن سبب ذلك.

فقال: كان قد اجتمع معي دريهمات على وجه الدهر، ففكرت عام أول في أن أتزوج، فإني كنت عزباً كما قد علمت (العزب الذي لا أهل له من الرجال والنساء) أي غير متزوج.

ثم علمت أن فرض الحج قد تعين علي ، فرأيت أن أقدم أداء الفرض على الزواج، وأتوكل على الله عز وجل، في أن يسهل لي بعد ذلك ما أتزوج به.

فلما حججت طفت طواف الدخول، وأودعت رحلي، وما كان معي في بيت نزلت فيه ، وأقفلت بابه وخرجت إلى منى.

فلما عدت إلى البيت وجدته مفتوحاً فارغاً أخذ كل ما فيه، فتحيرت ونزلت بي شدة ما مر بي قط مثلها.

فقلت: هذا أعظم للثواب ، فصبرت وقلت: لا داعي للغم والحزن، فاستسلمت لأمر الله عز وجل، واحتسبت ذلك لوجهه الكريم، فجلست في البيت لا حيلة لي، ولا تسمح نفسي بالمسألة، فاستمر مقامي ثلاثة أيام ما طعمت فيها شيئا.

وفي اليوم الرابع بدا الضعف يدبّ فيّ دبيباً، وخفت على نفسي الهلاك، وذكرت قول الرسول ﷺ: ماء زمزم لما شرب له، فخرجت أريدها حتى وصلت إليها فشربت حتى ارتويت، ورجعت أريد باب النبي إبراهيم الخليل عليه السلام لأستريح.

باب النبي إبراهيم أحد أبواب الحرم المكي، اعتبره ابن جبير في رحلته منسوباً للنبي إبراهيم خليل الرحمن، فقال: باب إبراهيم الخليل ﷺ في زاوية كبيرة فيها دار إمام المالكية في الحرم،وفيها خزانة للكتب، أما ابن بطوطة فقد ذكر في رحلته باب إبراهيم، وقال: إن البعض ينسبه إلى إبراهيم الخليل ﷺ. والصحيح أنه منسوب إلى إبراهيم الخوزي رجل من الأعاجم، والله أعلم.

فقال الرجل : فبينما أنا أسير إذ عثرت في الطريق بشيء أوجع إصبعي فأكببت عليه لأمسكه ، فوقعت يدي على هِمْيَان أدم أحمر كبير فأخذته.

فلما حصل في يدي ندمت، وعلمت أن اللقطة ـ ما لم تعرف ـ حرام، وقلت إن تركته الآن كنت أنا المضيع له ، وقد لزمني أن أعرفه، ولعل صاحبه إذا رجع إليه أن يهب لي شيئاً أقتاته حلالاً.

فرجعت إلى بيتي وفتحت الهِمْيَا ن، فإذا فيه أكثر من ألفي دينار صفر، فسددته أي أرجعته على حالته كما كان، ورجعت إلى المسجد فجلست عند الحجر، والحجر بكسر الحاء وسكون الجيم، موضع بجانب الكعبة قيل إن فيه قبر هاجر أم النبي إسماعيل عليه السلام: (معجم البلدان) فجلست عند الحجر، ونا ديت من ضاع له شيء فليأتني بعلامة ويأخذه.

فانقضى يومي، وأنا أنادي، وما جاءني أحد، وأنا على حالي من الجوع، وبت في بيتي ليلتي كذلك، وعدت إلى الصفا والمروة، فعرفته عندهما يومي حتى كاد ينقضي فلم يأتني أحد.

والضعف يزداد بي من أثر الجوع ، وخشيت على نفسي، فرجعت متحاملاً ثقيلاً حتى جلست على باب إبراهيم الخليل على نبينا وعليه السلام، وقلت قبل انصرافي، إني قد ضعفت عن رفع صوتي لتعريف اللقطة ، وأنا ماض أجلس على باب إبراهيم، قلت للجالسين والمارين ، من رأيتموه يطلب شيئاً قد ضاع منه فأرشدوه إليّ.

فلما قرب المغرب وأنا في الوضع ، إذا أنا برجل خراساني ينشد ضالة فصحت به، وقلت له: صف لي ما ضاع منك؟ فأعطاني صفة الهِمْيَان بعينه، ذكر وزن الدنانير وعددها.

فقلت: إن أرشدتك إلى من يرده عليك، تعطيني منه مائة دينار؟ قال: لا. قلت: فخمسين ديناراً؟. قال: لا. قلت: فعشرة دنانير؟. قال:لا. فلم أزل أنزل معه حتى

بلغت إلى دينار واحد، فقال: لا. إن رأى من هو عنده أن يرده إيماناً واحتساباً، وإلا فهو أبصر وولى لينصرف.

فورد علي أعظم وارد، وهممت بالسكوت، ثم خفت الله سبحانه وتعالى، وأشفقت أن يفوتني الخراساني.

فصحت به ارجع ،ارجع، وأخرجت الهِمْيَان فدفعته إليه، فأخذه وانصرف وجلست ليس لي من القدرة ما يوصلني إلى بيتي.

فما غاب إلا قليلاً حتى رجع إليّ، فقال لي : من أي البلاد أنت؟ ومن أي الناس؟ وأنا في غيظ عليه ما الله عالم به ،وقلت له : ما عليك هل بقي لك عندي شيء؟. قال: لا ولكن أسألك با لله العظيم من أي الناس والبلاد أنت؟ فعرفني ولا تتضجر مني.

فقلت : رجل من أهل الكوفة من العرب، فقال: من أيهم أنت واختصر؟ فقلت رجل من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب، فقال : ما حالك ومالك؟.

قلت: لا أملك في هذه الدنيا كلها إلا ما تراه، وقصصت عليه حال محنتي وما كنت طمعت فيه أن يعطيني من الهِمْيَان، وما انتهيت إليه من الضعف والجوع.

فقال: أريد تأكيداً لصحة نسبك حتى أقوم بجميع أمرك كله، فقلت: ما أقتدر على المشي للضعف ولكن ائْت الطواف وصح في أهل الكوفة، وقل: رجل من بلدكم بباب إبراهيم ، يريد أن يأتيه منكم من ينشط لحال هو فيها، فمن جاء معك فأْت به.

فغاب غير بعيد ، ثم جاء ومعه من أهل الكوفة مجموعة اتفق أنهم كلهم كانوا يعرفون حالي، فقالوا : ما تريد منا يا هذا؟.

فقلت: هذا رجل يريد أن يعرف حالي، ونسبي لشيء بيني وبينه، فعرفوه ما تعرفون من ذلك، قال: فعرفوه، فمضى مسرعاً ثم جاء فأرجع الهِمْيَان بعينه كما سلمته إليه ، فقال خذ هذا بأسره بارك الله لك فيه.

فقلت: يا هذا ما كفاك ما عاملتني به حتى تهزأ بي وأنا في حال الموت! قال: معاذ الله هو لك. قلت: فلم بخلت علي بدينار ثم وهبت لي الجميع ؟.

فقال: ليس الهِمْيَان لي، وما كان يجوز لي أن أعطيك منه شيئاً قل أو كثر وإنما هو لرجل من بلدي، وسألني أن أطلب له رجلاً من العراق أو من الحجاز، وأن

يكون فقيراً مستوراً وأسلم هذا المال كله، فتوفرت صفات الرجل فيما طلبه لتسليمه المال فخذه هنيئاً مريئاً.

فقلت له : يرحمك الله إن كنت تريد استكمال الأجر فخذ منه ديناراً واشترِ لي به طعاماً وائتني به، فقال: لي إليك حاجة، قلت: قل. قال: أنا رجل موسر والذي أعطيك ليس لي فيه شيء، كما عرفتك، وأنا أسألك أن تصحبني إلى رحلي فتكون في ضيافتي في الطريق إلى الكوفة.

فقلت: ما في حركة فاحتل في حملي كيف شئت، فغاب عني فترة وجاء بمركوب فركبته إلى رحله وأطعمني مما كان عنده، وقطع لي من الغد ثياباً، ورافقني إلى الكوفة، وكان يخدمني بنفسه، فلما وصلنا الكوفة أعطاني من عنده عدداً من الدنانير، وقال تزود بها ، فارقني وأنا أدعو له بخير وأشكره.

وأخذت أنفق من تلك الدنانير، ولم أمس الهِمْيَان إلى أن وجدت ضيعة رخيصة، فاشتريتها بما في الهِمْيَان فأغلَّت وأثمرت، وأنا من الله عز وجل في نعمة جزيلة وخير كثير، والحمد لله رب العالمين.